

شاهد على الطائفية من المنفى: حالة أمين معلوف

بقلم: د. عبد الرزاق أمقران

جامعة محمد لين دباغين سطيف2

ملخص: تنبني هذه الورقة البحثية على فرضية مؤداها أنّ أغلب أعمال أمين معلوف تقترح نسقا من المسوغات يبرّر من خلالها عدم "تورطه" في الطائفية داخليا (أي عدم بقائه في لبنان) وعدم تورطه خارجيا (أي المشاركة في تأجيج الطائفية وهو بعيد عن لبنان). أما منهجية تتبع الفرضية الموجهة للبحث فتتلخص في دراسة روايات أمين معلوف التي تحمل رصيذا يهتم بالطائفية في لبنان ونولي أيضا اهتماما خاصا لكتبه الفكرية التي ظهرت فيها الطائفية كجزء متمفصل وغير مستقل عن قضايا إنسانية شاملة.

تماهى المنفى مع الإبداع، وأصبح الأول فضاء مريحا للثاني، وبين طرفي هذه الثنائية بني أمين معلوف مشروعا فكريا توجهه رواياته الكثيرة وأعماله الفكرية على قلتها، فينشر لنفسه في المحصلة صورة المثقف اللبناني الحريص على "النأي بالنفس" (حتى نستعمل آخر ما ابتكره السياسة في اللغة السياسية) بخصوص ما يتجاذب لبنان من صراعات طائفية ومذهبية. موقف قد يوصف بالحيادي والداعي إلى تغليب الحوار والذود عن قيم التسامح بين فئات الشعب الواحد وكل العناصر هذه وغيرها من المفترض أن تخرج أمين معلوف من دائرة المثقفين المتورطين في الطائفية.

Abstract: Amine Maalouf was one among so many Arab thinkers who left their countries to join exil because of sectarianism devastating societies and lives. He wrote a great number of well-known novels and theoretical contributions in which-we assume-he displays a fierce defense on his positions towards sectarianism in the Arab world and Lebanon in particular. His works are somehow built around sets of justifications explaining in a marvelous style of writing the reasons which pushed him to leave when so many made the wrong/right decision to stay, so to be a part of a stupid war.

الكلمات المفتاحية: الطائفية، المنفى، المهاجر، نسق تبريري، المواطن العالمي، الهوية.

مقدمة:

يضع أمين معلوف نفسه في الأعمال التي وقع عليها اختيارنا لكتابة هذه الورقة في وضعية الشاهد الذي قرر طواعية يوما ما مغادرة بلده واللجوء إلى بلد حاضن سمح له مع مرور الوقت بتعزيز هذه المهمة. الإزاحة الجغرافية والإزاحة الوجدانية التي رافقت خروجه من لبنان وبقاءه بعيدا عنه لفترة طويلة، حولتا التاريخ وأحداثه، الأفراد وما يرتبط بهم من آمال، سقطات مدوية، نجاحات، العالم بأسره وما يتحاذيه من قوى التغيير والثبات، هذا الكل تحول بنظر الكاتب اللبناني إلى مادة خام قابلة للمساءلة المستمرة وأعطى لنفسه الحق بأن ينجز تلك المسألة بمقاربة يريد لها متميزة، ويدافع عنها بشراسة ضمنت له الكثير من المعجبين، بل من الأنصار، ولكن جلبت له أيضا خصومات متعددة المشارب. مقارنة تلمي على المفكر اللبناني-وهو يجد راحة في ذلك- في تقمص دور العارف بمآلات الأحداث التاريخية، المدرك لطبيعة البشر وسلوكاتهم العقلانية وغير العقلانية، والقادر على تفسير العلاقات الدولية ومحدداتها. فهو في عمله الأخير، رواية "التائهون" يقدم مرافعة قوية يدافع من خلالها على كل الذين يقررون لسبب من الأسباب مغادرة البلد الأصلي ويوفر لهم جملة من المسوغات، ليس للهجرة فحسب، ولكن أيضا لعدم العودة. الرواية هذه تدفع المهتم بلبنان والمسألة الطائفية فيه دفعا إلى الاقتناع بأن لبنان وما يمثله ويحمله في ثناياه، لم يعد بتقييم المؤلف إلا بلدا ضمن بلدان أخرى تنتمي كلها إلى بلد كبير هو العالم. وعليه، الاهتمام بلبنان ومسألة الطائفية فيه متاح بالقدر الذي يتيح دور الشاهد الذي أراده لنفسه وليس أكثر من ذلك. لا مكان عند الشاهد من المنفى للعاطفة غير المتحكم فيها ولا للانتماءات لأنها سالبة للإرادة وقاتلة للتواصل ولا مكان للتفوق والتفوق بمعنى التخندق مع الذات لمقارعة ومخاصمة واستعداد الأخر.

قبل رواية "التائهون" أَلَّف أمين معلوف كتابا فكريا أثار جدلا في العالمين العربي والغربي موسوما بـ "اختلال العالم" وفيه فسر طبيعة العلاقات المتوترة القائمة حاليا بمرجعيات

تاريخية صدمت الكثير من القناعات المتداولة منذ عقود. الاختلالات التي تكتنف الحضارة الغربية والحضارة العربية والإسلامية تحمل بنظره أسباب التوتر المستمر، وبالتالي يدعو إلى تجاوز حالة التوتر هذه بإرساء قواعد جديدة للتعامل بعد التشخيص العميق والصادق لطبيعة الاختلالات الموجودة.

يبقى أمين معلوف وفيما في هذا الكتاب لدور الشاهد ويضطلع به أولاً، من حيث المكانة الفكرية التي منحها لنفسه ليخوض في قضايا مغلفة بالفكر الإستراتيجي، وهو في اعتقادنا مسار له رواده المتخصصون والشرعيون. ويضطلع به ثانياً من بوابة اقتراحه لتصور يتجاوز الاختلالات التي كشف عنها. تصور حرص فيه على إرضاء أطراف على حساب أطراف أخرى يتعمد إغضابها، ولكن في مرحلة تالية يغضب الأطراف التي أرضاها ويرضي التي أغضبها. تحليل يضيفي شرعية على تحليل الكاتب الحريص على إظهار حياد المؤرخ مهما كانت القضايا الخاضعة للمساءلة، ومهما كان قريبا من وجداننا، ومهما ربما جسدت الظلم الذي وقع علينا.

أما "الهويات القاتلة" الكتاب الفكري الآخر الذي ألفه قبل "اختلال العالم" فيطرح صورة الإنسان المأمول في سياق عولمي يسمح لنا بتحريك الدفة لكنه يمنعنا من تحديد الوجهة أو كما أخبرتنا به الصورة المجازية التي وظفت في الكتاب. يدافع أمين معلوف عن هوية المواطن العالمي الذي لا يعترف بالانتماءات الضيقة والهويات الحصرية التي تضغط على أصحابها لمعانقة العزلة وحرق جسور التواصل فيؤدي ذلك إلى سوء التفاهم والذي بدوره يوّلد الأحقاد والضغينة داخل المجتمع الواحد بين الطوائف والأعراق والجنسيات، وينسحب هذا الأمر ليصيب بالعدوى العلاقات بين المجتمعات بخاصة تلك التي لا تجمعها قواسم ثقافية مشتركة.

كتاب "الهويات القاتلة" مهم في البحث لأنه يعلمنا عن طبيعة الإزاحة الوجدانية التي صاحبت الإزاحة الجغرافية اللتين عايشهما أمين معلوف بمغادرته للبنان وإقامته مطولا

بفرنسا، الأمر الذي يجعله يكتب ويصرّح في أكثر من موضع ومناسبة بأنه لم يولد في بلد بعينه ولكن ولد في العالم، وأنه ليس لبنانيا خالصا ولا فرنسيا خالصا، وبالتالي ومسايرة لهذا التصور المترجم في الكثير من كتاباته، نعتقد بأن الشأن اللبناني بكل أبعاده - بما فيها المسألة الطائفية - سيتخذ بنظره دلالات ستختلف جذريا عن دلالات أخرى مفترضة لو بنى تحليله الشامل حول مقولة أنه لبناني صرف أو فرنسي صرف.

من الواضح، وعلى ضوء ما عرض أعلاه، بأن اهتمامنا في البحث يذهب ليغطي المؤلفات الثلاث المذكورة أعلاه مسنودة بقراءات إضافية تهتم بكتابات مؤلفين آخرين. جملة القراءات هذه تطمح إلى تبيان كيف أصبح لبنان عند أمين معلوف إقليما جغرافيا ولحظة زمنية وأصبحت الطائفية في لبنان ممارسات تدوينية وشفهية لدى الشخصيات المحورية لروايته الأخيرة التي لم يذكر فيها لبنان اسما ولو لمرة واحدة، ولم توظف كلمة الطائفة على الإطلاق، بالرغم من أن النص الأصلي للرواية يتجاوز حجمه الخمسمائة صفحة.

مشكلة البحث:

يهتم البحث بمسألة الطائفية بلبنان عند أمين معلوف ليس كما وردت على لسانه في حواراته الصحفية والأدبية العديدة، ولا كموضوع ورد في كتاباته المختلفة، ولكنه يهتم بها من مدخل النسق التبريري الحاضر بقوة في المؤلفات الثلاث المذكورة سابقا، النسق الذي يتخذ مظهرها معلنا في كتاباته الفكرية وضمنا في رواياته على لسان الشخصيات المحورية خصوصا والشخصيات الثانوية أحيانا.

وضعية الشاهد المقيم بعيدا عن لبنان التي وضعنا فيها أمين معلوف أو التي وضع نفسه فيها تعني تصوريا بأن المسافة الجغرافية أفرغت المسألة الطائفية من مضامينها الواقعية وتحولت إلى ما يشبه الترف الفكري الذي نستحضره ونزيجه متى شئنا بغايات واضحة أو غامضة. كلمة الشاهد تعني أننا نملك ما نقوله في مسألة معينة تربطنا بها روابط قوية أو ضعيفة في سياقات زمنية واقعية وليست مفترضة، لكن هذا الأمر لا يجعلنا طرفا في المسألة

ولا خصما ولا عدوا، وقد نختار في فترة ما أن نرفض حتى أن نكون شهودا بالرغم من الضغوط المحيطة بنا وربما، أيضا، بالرغم من الحاجة الملحة والمصيرية لشهادتنا. إذن، كيف لأمين معلوف اللبناني، المسيحي والمتحدث بالعربية أن يتسق مع فكر نسجه وهو في المنفى الطوعي لسنين عديدة يذيب فيه الطائفية والانتماء في قوالب تتجاوز بكثير المعطيات المحلية؟ هل استطاع فعلا بعد كل هذا الابتعاد الطوعي أن يقنع نفسه بأن جنة الطائفية أو لهيبتها لن تطاله أبدا والجغرافيا كفيلا بأن تخفف من آثارها؟ أم أنه يقصد من خلال كتاباته ومن خلال توظيف النسق التبريري أن يعلن بأن مسألة الطائفية لم تزح من اهتمامه ووجدانه في يوم من الأيام ولكن على خلاف الجميع-الذين إذا كتبوا حول و/أو تكلموا عن الطائفية أو انخرطوا في مساعي خيرة-زادوا اللهب اشتعالا والهوة اتساعا. على خلاف هؤلاء يحتفظ لنفسه بموقع الطرف التوافقي أو التوفيقي الذي لم تلتطخه نفايات الطائفية في الماضي ولم تستطع تلوين عقله في الوقت الذي سقط تحت سطوتها الكثير من بني جلدته.

النسق التبريري الحاضر بقوة في أعمال أمين معلوف ومن خلال آليات مختلفة، يجسد بوفاء هذا المنحى التوافقي أو التوفيقي ليس بما يرتبط بمسألة الطائفية فحسب، بل يريد أن ينسحب على العديد من القضايا الإنسانية.

وعليه يجب التنويه إلى أنّ النسق التبريري لدى أمين معلوف وبما يرتبط بمسألة الطائفية يبنى حول قضايا رئيسة هي:

- تبريرات مرتبطة بقضايا الخيانة والوفاء.
- تبريرات مرتبطة بقضايا البقاء في البلد الأصلي أو الابتعاد عنه.
- تبريرات مرتبطة بقضايا العودة إلى البلد أو البقاء بعيدا عنه.

فرضية البحث: القراءة الموجهة التي أخضعنا لها مؤلفات أمين معلوف الثلاث المذكورة سابقا وقراءتنا غير الموجهة لمؤلفاته الأخرى حددت لنا معالم فرضية بحثية وجهتنا في انجاز الورقة البحثية.

افترضنا وعلى ضوء الرصيد المعرفي الذي نملك بشأن فكر أمين معلوف وعلى ضوء ما يكتب عنه بأنّ علاقة الكاتب بوطنه الأم تتحدد بالدور الذي ارتضاه لنفسه وهو في المنفى. خروج أمين معلوف من بلده والحرب الطائفية مستعرة، شأنه في ذلك شأن الكثير من اللبنانيين، وبقاء الكثير ممن يعرف ومن يجهل في لبنان إيمانا بقضية ودفاعا عنها، أو قهرا وضعفا في الحيلة، وبعد ذلك اكتشافه لأنماط حياتية غريبة جعلته ربما يعيد تقييم الأوضاع مما سمح له باعتناق قوالب فكرية مهدت للعب دور وشغل مكانة قرأ من خلالها أوضاع العالم ولبنان بمقاربة غير متوقعة عند البعض ولاقت قبولا عند البعض الآخر.

الابتعاد عن الوطن والبقاء بعيدا عنه يضاف إليهما المواقف الفكرية التوفيقية التي اتخذها بشأن القضايا الشائكة في لبنان وغيره من البلدان العربية، جعل أمين معلوف محطّ نقد دائم ولوم وعتاب، ومن هنا تظهر أهمية الاهتمام بالنسق التبريري الذي يوظفه في كتاباته مواجهها وموضحا ومعاتبا ورافعا للبس وسوء الفهم.

منهجية البحث:

عندما نتعامل مع فكر استثنائي من الحتمي أن نضع لمقاربتنا محاذير تجنبنا التأويل المؤدي إلى التطاول وسوء الفهم من جهة، وتجنبنا الاختزالية في ما ننجز فننقر ما طمحننا إلى إثرائه، ومنه وضعنا المحاذير التالية والتي في حقيقة الأمر فرضت نفسها علينا.

أولا: أخذنا من المؤلفات الثلاث التي اشتغلنا عليها فقرات في بعض المواضع وصفحات كاملة في البعض الآخر، ووضعنا جانبا فصولا كاملة لما وقفنا على أهميتها لغايات الكتاب المعني، ولا تمثل أهمية تذكر لغايات الدراسة التي ننجزها. صعوبات جمة واجهتنا حين تعاملنا مع المقاطع المعزولة عن سياقاتها، ولكن تركيز البحث عن عناصر تحليلية تحصر النسق

التبريري الذي يوظفه الكاتب لتوضيح موقفه من ابتعاده عن وطنه، ومن ثمّ وفي المرتبة الثانية تبرير اضطراره بأدوار غير متوقعة أهمها الدور الذي يقوم به المهاجر النخبوي.

ثانياً: ينتقل أمين معلوف بنا من الأدب إلى التاريخ إلى العمل الصحفي العميق والرصين دون أن يمنحنا إمكانية التمييز بين أسلوب كتابة وآخر، وهذا أمر يغريك بأن تأخذ الكل وتعتمده لصعوبة تفكيك الأجزاء وفصلها عن بعضها البعض. الخليط السحري الذي يقترحه علينا في كتبه جعلنا نتوحي الحذر في ما نعتمد ونرفض بغاية الوفاء لغايات الدراسة.

ثالثاً: الفكر الاستثنائي لا يحق لنا أن نسمو به إلى مصاف الفكر المثالي غير القابل للمساءلة، وبهذا الصدد يمكننا التصريح بتواضع شديد بأن ما اقترحه أمين معلوف يتضمن بعض الطروحات الصادمة فضّلنا تجنب الخوض فيها لافتقارنا لرؤية واضحة تجاهها بخاصة ما تعلق منها بالقضايا الدينية وكيفيات تأثيرها على ثقافة الانتماء.

في الأخير، ننوه إلى أنّ الورقة البحثية بنيت حول قسمين مختلفين ولكن يكملان بعضهما البعض. يعرض القسم الأول القضايا التي أدرجها أمين معلوف في روايته "التائهون" والتي وظفها لتمير مواقفه بخصوص هجرة الوطن والفرار من حروب الطائفية. أما القسم الثاني فيهتم بالدور الذي حدده أمين معلوف لنفسه في المنفى بعيداً عن لبنان ومشكلاته من منطلق كونه مهاجراً يعيش في بلاد الغربة وهذا ما نسجل حضوره في المؤلفين الآخرين: "الهويات القاتلة" و"اختلال العالم".

أولاً: النسق التبريري في رواية "التائهون":

أ- **الخيانة والوفاء:** يحتل موضوع الخيانة والوفاء في رواية "التائهون" مكانة محورية في بنية النسق التبريري وبالقدرة الإبداعية والمهارة البنائية في سرد الوقائع والأحداث التي يشتهر بها، يعوم أمين معلوف ما يعتبره خصومه كخيانة للوطن، للطائفة وقضايا الأمة، في بحر من الخيانات الجزئية والظرفية يتورط فيها الكثير؛ بحيث يظهر ابتعاده عن لبنان وبقائه بعيداً عنه لفترة طويلة، ومن ثمّ التعاطي مع الشأن اللبناني بمقاربات لا تعجب الكثير. يظهر ذلك على

لسان الشخصيات المحورية للرواية كأمر مشروع لا يصطبغ البتة بألوان الخيانة. بل أكثر من ذلك، الخروج من لبنان في السبعينيات من القرن الماضي هو الوفاء في أسمى معانيه لأنه حافظ على نظافة يديه كما كتب ولم يتحول إلى أمير من أمراء الحرب الذين كثر عددهم أثناء الحرب الطائفية، جامعين المال والجاه. مقارنة بما أصابوا به الوطن من ويلات، فإن الخيانة في نظره لصيقة بمؤلاء وليس به¹.

يبدل أمين معلوف جهدا أدبيا كبيرا في الرواية ليعصف بالسهولة المتفشية في البلدان العربية لإدراج كل من لا يخضع لأنماط التفكير المهيمنة، وقوالب السلوك المتوقعة، وعدم احترام الشيفرات الاجتماعية والسياسية القاهرة تحت خانة الخيانة. يهاجم الكاتب هذا المنحى بتخصيصه فضاء من الرواية لشخصية غادرت البلد (نحن نفترض بأنه لبنان) وعاد إليه بعد ذلك في زيارة ظرفية وهو حامل للجنسية الأمريكية، ويشغل مع البنتاغون، ولم يستحضر الكاتب أي عنصر خيالي يرمي به هذه الشخصية بالخيانة.

ب- البقاء والابتعاد: يقدم أمين معلوف جملة من التبريرات في الرواية على لسان الشخصيات المحورية يوضح من خلالها أسباب البقاء ليطمئن فهم وتقبل أسباب الابتعاد وهو يقترح على الجمهور أن يقرأ حالته من مستوى الآخرين الذين فضلوا البقاء ومن المستوى الذي يخصه دون الغير.

نعلمنا مثلا، في مقطع مؤثر على لسان إحدى شخصيات الرواية بأنه كان يشعر منذ الثالثة عشر من عمره بأنه ضيف أينما حل. يستقبل غالبا بالحفاوة المستحقة وفي بعض الأحيان يستقبل على مضض، ولكن لم يستقبل على الإطلاق كساكن يتمتع بكل حقوقه. ويخلص إلى القول بأنه كان غريبا في البلد الذي ولد فيه وغريبا سنين بعد ذلك في بلد المنفى².

¹ Amine Maalouf, **Les Désorientés**, (Paris : Ed Grasset, 2012), p 21.

² Amine Maalouf, **Les Désorientés**, p 34 .

وفي مقطع آخر يرد على الذين يلومونه على ابتعاده عن الوطن بتقديمه مبرر أن كل البشرية تولد في العالم، وبالتالي مغادرة البلد من الأمور الطبيعية في حياة الأفراد، وإذا غابت الذرائع فإن الأفراد سيخلقونها. المهم أن تقتنع بأنك ولدت في العالم وليس في بلد من البلدان وهذا حظ كبير³.

تعد الحرب من أكثر المبررات حضوراً في الرواية وفي حوار داخلي بينه وبين شخصيات الرواية، ينصف أمين معلوف الذين لم تجبرهم الحرب على الهجرة ولكنه من جهة أخرى يطالب بأن ينصفه الآخرون الذين رأوا في قراره خيانة تجاه الوطن. الحرب ورطت الكثير (ولطخت أياديهم) ومغادرته حفظت له (الأيادي النظيفة) وهاتين العبارتين يستعملهما بكثرة.

الحرب حينما قدمت لم تؤثر في الأفراد والطوائف والمناطق بنفس التأثير حسب الحكمة الروائية، بل إن الحرب اصطادت أكثر الناس بعداً منها ومن شرورها، وبهذا يبرر بأكثر قوة هجرته: من المفروض أن تحصد الحرب الأطراف التي تشعلها وتغذيها وإذا لم تفعل وجعلت الأبرياء وقوداً لها، أصبح الكل طرائد مشروعة وبالتالي الأفضل الهجرة بمبررات شرعية على الموت بدون مبررات⁴.

ج- مبررات العودة وعدم العودة: يبقى أمين معلوف وفيما في هذا السياق لصورة المواطن العالمي التي رسمها لنفسه ويخاطب في حوار صامت تقوده شخصيات الرواية الذين لا يفهمون بعده الطويل والمستمر عن الوطن فيذكرهم بانتمائه لكل البلدان والديانات والطوائف، ويؤكد عودته يوم يعود بلده إلى سابق عهده قبل أن تندلع الحرب الطائفية ويتغير البلد كل هذا التغيير.

الشخصية المحورية في رواية "التائهون" تعيش في باريس لأكثر من خمسة وعشرين سنة تعود إلى أرض الوطن (نفترض دائماً بأنه لبنان) بسبب وفاة أحد الأصدقاء القدماء، تعلن

³ Amine Maalouf, *Les Désorientés*, p 59.

⁴ Amine Maalouf, *Les Désorientés*, pp 188-189.

دون تردد بأن العودة لا تعني إلى البلد والتحول فيه وإعادة اكتشافه، ولكن المقصود من العودة هو اقتفاء آثار فترة الصبا والشباب وإحياء الذكريات. تصريح يتسق تماما مع ما قرره آدم (الشخصية المحورية المعنية) من أن يبقى بعيدا عن الناس ولا يخبر من يعرفه بخبر عودته الظرفية وأن يقيم في فندق متواضع منعزل وفي فترة انحسار النشاط السياحي⁵.

ثانيا: الاهتمامات التعويضية لغياب البلد: نموذج المهاجر وأدواره

دراستنا لكتابي "الهويات القاتلة" و"اختلال العالم" تسمح لنا بأن نصرّح بأن أمين معلوف مهموم بتعويض الفراغ الذي ينجر من عمليات إزاحة لبنان وما يحمله من شحنات وجدانية، عاطفية وانتمائية من فضاءات التحليل المباشر وإلحاقه بسياقات أكثر تجريدا واتساعا. جانب كبير من فكره يسخر لتحديد ما يستسيغه لنفسه ولا يسمح به للآخرين. ومن هذا المنطلق لا ينزعج إطلاقا بأن يعامل كمهاجر أو أجنبي، بل بالعكس ذلك يعزز قناعته بضرورة اضطراره بمهام وأدوار بعضها متواضع والكثير منها يرجى منها الفائدة الكبيرة لمجتمعات عاشت ولا تزال في ظل توترات قائمة على سوء فهم عميق.

يهتم القسم الثاني من الورقة بهذا الدور الذي حدده أمين معلوف والذي لا يخرج عن دائرة وضعية الشاهد التي وصفناه بها. الوضعية التي نعتقد تضيي الكثير من الالتباس على مواقفه ليس من الطائفية فحسب ولكن على جملة من القضايا المصيرية للإنسان العربي. يقف الدارس لفكر أمين معلوف على اهتمامه الشديد بل المفرط في بعض الأحيان بقضايا الهجرة سواء في رواياته أو في كتبه الفكرية التي لا يتوقع القارئ إدراجها فيها. الهجرة في كتابات المؤلف اللبناني ليست مرفقا ضمن ملفات شائكة أخرى، بل هي القضية المحورية في المجتمعات الغربية، وبالأخص المجتمع الفرنسي الذي يعيش فيه منذ عقود بعد أن هاجر لبنان موطنه الأصلي ملتحقا بمن سبقه إلى الهجرة من أفراد عائلته الكبيرة.

⁵ Amine Maalouf, *Les Désorientés*, p 375.

تبرز محورية قضايا الهجرة عند المفكر بصيغ مختلفة تلمح بين موضعها ضمن تحليل صارم لحاضر العالم الغربي وبين وصف مآسي المجتمعات الضعيفة والهشة التي أنهكتها الحروب والمجاعات والكوارث الطبيعية. تحضر في سياقات التحليل الذي يعتمده آليات توضيح متنوعة وثرية مثل توظيف أمثلة واقعية والعودة إلى الشواهد التاريخية وإجراء المقارنات. هذا الكل رتب بطريقة تخدم في الجمل التوجه العام لطرحه والذي يبين فيه بأن العالم اليوم يقوم على اختلالين أساسيين أصابا العالم الغربي والعالم العربي-الإسلامي على حد سواء بتأثير شروط تاريخية موضوعية وأن-وهذا مثير للاهتمام- قضايا الهجرة لا يمكن دراستها وفهمها ومن ثم محاولة التعامل مع تأثيراتها، إلا من خلال سياق تحليل وفهم هذا الاختلال المزدوج. من العرض أعلاه نفهم حضور مفاهيم ثقيلة في فكر أمين معلوف وعلى رأس القائمة تبرز مفاهيم الهوية، الانتماءات، الثقافة، الشرعية... ويمد الجسور بينها بالشكل الذي يتيح الانتقال من أكثر معانيها تجريدا إلى المعاني الدقيقة والمرتبطة بقضايا الهجرة. وبالتالي نكتشف معاني الغريب والمهاجر في سياقات نظرية سامية لا نتوقع لها ارتباطات مفصلة إذا ما بقينا في مستوى السطح. إذن، ملمح المهاجر والغريب في أعمال المفكر اللبناني تمثل مسائل ساجحة في سياقات فكرية ونظرية أوسع يستوجب استنباطها بآليات إجرائية دقيقة.

أ- ملمح "المهاجر" و"الغريب" في أعمال أمين معلوف: اعتمدت الدراسة، كما سبق وأن ذكرنا، على مجموعة من الفقرات والمقاطع المختصرة ومن أخرى مستفيضة عزلت عن سياقات أوسع، وتوخينا في عزلها عدم تضخيم عناصر معينة على حساب عناصر أخرى. هذه المنهجية مكنتنا من تحديد المعالم الرئيسة "للمهاجر" و"الغريب" في أعمال أمين معلوف.

- يؤكد أمين معلوف في مقطع مثير للجدل بأن لا وجود للغرباء في القرن الذي نعيش فيه بل يوجد "رفقاء السفر". فسواء قربت المسافة التي تفصلنا عن اللذين يقيمون في الجهة

الأخرى من الحي الذي نقيم فيه أو كانوا يقيمون في أقاصي الأرض، ففي الحالتين هم يعيشون على بعد خطوات منا. سلوكياتهم تؤثر فينا وسلوكياتنا تؤثر فيهم.

"Il me semble que le moment est venu de modifier nos habitudes et nos priorités pour nous mettre plus sérieusement à l'écoute du monde où nous sommes embarqués. Parce qu'il n'y a plus d'étrangers en ce siècle, il n'y a plus que des «compagnons de voyage». Que nos contemporains habitent de l'autre côté de la rue ou à l'autre bout de la terre, ils ne sont qu'à deux pas de chez nous; nos comportements les affectent dans leur chair, et leurs comportements nous affectent dans la nôtre"⁶.

وصفنا هذا المقطع بالمثير للجدل لأنه يذهب عكس ما يؤكده الواقع: المجتمعات المستقبلية لجحافل المهاجرين يكثر فيها استعمال وصف "الغريب" ويوظف في الغالب بشحنات أيديولوجية وعنصرية تبغى الإهانة والإذلال. ومن جهة أخرى يكثر وصف "الغريب" حتى في المجتمعات المصدرة للهجرة وأكثر استعمالاته توظف لوصف حالات معيشية مزرية أو لوصف تدني الحقوق أو غيابها.

هل يجهل أمين معلوف هذه الحقائق عندما صرح بخلو هذا القرن من الغرباء وهو يعيش في بلد يعرف عنه ما يعرف؟ بالتأكيد لا.

السفر الذي أشار إليه المفكر اللبناني والذي نحن رفقاء فيه هو هذا العصر الذي عرف فيه الإنسان تطورا علميا وتكنولوجيا مذهلين قلصا الحدود الجغرافية والثقافية بين شعوب العالم وجعلا التواصل متاحا ويسيرا وهذا الأمر كان من المفروض أن يسهم في إذابة الانتماءات والعصبيات أو على الأقل الحد منها. من المستغرب إذن، أن يصفنا الذين نلجأ إليهم في وقت الفاقة بالغرباء، ومن المستغرب أن نصف أنفسنا بالغرباء في بلداننا أو خارجها في عصر مثل العصر الذي نعيشه. "الغريب" على ضوء هذا الطرح هو كل فرد لا يعيش هذا العصر وما جلبه للبشرية من محفزات وتطورات لم يكن يتوقعها أكثر المتفائلين وعلى رأسهم المختصون في الدراسات الاستشرافية. من لا يؤمن بالإنترنت كوسيلة مذهلة لاختصار

⁶ Amine Maalouf, *Le dérèglement du monde*, (Alger : Ed Sedia, 2009), p 178.

الوقت والجهد ووسيلة راقية للتواصل، سيبقى "غريبا" في وطنه أو هاجر إلى الخارج سواء تبوأ أفضل المراتب أو عاش على هامش المجتمع فقيرا أو بطالا.

عندما نضع جسورا ممتدة بين المقطع المذكور أعلاه وسياقات أحر يظهر أمين معلوف بمظهر الذي يلوم أو ينصح المهاجرين الذين يقيمون في البلدان الغربية ويظهرون ازدياد صارخا لكل مقومات الحياة العصرية، من التشبث باللغة الأم والعزوف عن تعلم لغة البلد المستقبل ولغات أخرى. الاحتماء بالانتماء الأصلي والتفوق حول الذات والقبيلة والعشيرة والخوف من كل مبادرة تقرهم من المجتمع المستقبل فيعيشون عزلة ضمن المجتمع الأوسع بالرغم من الراحة النسبية التي يوفرها المجتمع المصغر الذي صنعوه.

لكن بنظر أمين معلوف اللوم والعتاب يذهب أيضا إلى مجتمعات العالم الغربي التي حولت انتصارات العصر إلى هزائم. الهزيمة في الموضوع قيد الدراسة هو الإخفاق الذي خبرته كل المحاولات لجعل المهاجرين يعتنقون القيم الغربية ومرد ذلك بنظره هو أن الغربي يتنكر لقيمه حينما يحاول تقريب المهاجر منها. فمثلا يتبع أساليب غير ديمقراطية في تناوله لقيم الديمقراطية مع المهاجرين. وبالتالي قد ينسحب مفهوم الغريب على المواطنين الأصليين في المجتمعات الغربية عندما ينقلون أنفسهم إلى وضعية من يؤمن بمقتضيات العصر ولا يشتغل بها في وضعيات أحر ويمارس فيها الانتقائية بحق من يختلفون عنه في لون البشرة أو اللغة أو المعتقد أو الخصائص الثقافية.

- أخبرنا أمين معلوف في موقع آخر بتقدم مهاجرة من أصل جزائري مقيمة في أمستردام، هولندا، إلى البلدية التي تتبع إليها وقدمت ملفا تطلب التصريح لإنشاء جمعية نسوية تنشط في العمل الخيري. بعد مدة عادت مستفسرة فأخبرها الموظف برفض طلبها بعد أن استنصحوها إمام المسجد⁷.

⁷ Amine Maalouf, *Le dérèglement du monde*, p 206.

هذه الحادثة برأيي تحمل أكثر من دلالة: تشير أولاً لصفة رئيسة في المجتمع الغربي يجب أن يتحلى بها المواطن الأصلي أو غيره وهي صفة المبادرة. من خلال الحادثة ينكر أمين معلوف على المهاجرين بقاءهم على هامش المجتمع، ويشجعهم أن يحدو حدو المهاجرة الجزائرية. على المهاجر أن يستفيد من كل ما توفره البلدان الغربية من إمكانيات الترقية الاجتماعية، وما تسخره في مجال حقوق الإنسان، وما تبذره من تنظيمات أسرية واجتماعية تدعم معنى الحياة. وبالتالي، ينتقل بنا من صورة المهاجر الكادح المهموم بلقمة العيش وبمبلغ العملة الصعبة الذي يحوله إلى بلده الأصلي، ينقلنا إلى صورة المهاجر الذي حل عقدة العيش واهتم بالمثل العليا التي يعرف بها المجتمع الغربي في وقتنا الحاضر.

وإلى جانب هذا، من المفيد الوقوف عند حضور امرأة في الحادثة وليس حضور رجل. حتى وإن لم يقصد المؤلف فإن الحادثة بحضور امرأة تحمل دلالات مختلفة عن حادثة يحضرها رجل ولا ننسى، في بلد مستقبل للمهاجرين. لسنا بحاجة في هذا المقام إلى العودة إلى ما يتجاذب موضوع المرأة ومكانتها في المجتمعات العربية، ويكفي أن نلاحظ بأن فعل المبادرة في الحادثة أخذ شحنة رمزية أقوى عندما ارتبطت بامرأة عربية مهاجرة تلازمها صور الاضطهاد والحرمان أينما حلت.

أمر رائع أخبرتنا به الحادثة عندما علمنا بأن الطلب رفض بنصيحة من الإمام. السلطات الهولندية المحلية لم ترفض ولو فعلت لظهرت بمظهر الذي يعادي قيمه وبالتالي لأصبح محل انتقاد مجتمعي واسع. جاء الرفض من طرف شريك في الانتماء والثقافة وهو "أدرى بما يصلح ويناسب المرأة العربية المهاجرة". سلطة الخطاب الديني والأخلاقي يفرض قواعد السلوك حتى في فضاءات تملك قواعدها الخاصة. يبدو أن أمين معلوف من خلال الحادثة ينبه إلى الوصاية التي تمارس على المهاجرين خارج أوطانهم من منطلقات الدين والأخلاق والانتماء والهوية، وما الإمام إلا مهاجر يعيش في غير وطنه وهو يتحرك بما يمليه عليه مجتمعه الأصلي من شحنات ثقافية وفي الوقت نفسه يبعد نفسه والآخرين عن "خطر

ثقافة الغرب". أما السلطات المحلية التي رفضت/ لم ترفض فهي تعتقد ربما بأنها احترمت مجموع المهاجرين المتواجدين في فضاء اختصاصها بلجوئها إلى التمثيل الديني. من هنا يظهر الكيل بمكيالين ويظهر الإخفاق الذي تكلمنا عنه والذي يعامل الوافدين والمهاجرين خصوصا بقيم غريبة مغلقة ومكيفة وليس بالقيم الحقيقية التي يجيهاها المواطن الغربي. الخلاصة إذن، كان الأمر يسهل لو قبل طلب المهاجرة الجزائرية كما تقبل مئات الطلبات التي يتقدم بها المواطنون الأصليون دون الرجوع إلى وصاية ما، ولن تكون وصاية إمام مهاجر بالتأكيد. بعد المهاجر المبادر والمهاجر الوصي الذين أبرزتهما الحادثة التي أخضعناها للتحليل، تنتقل إلى مواصفات أخرى للمهاجر ظهرت بأشكال مختلفة في أعمال أمين معلوف، مواصفات جمعناها تحت عنوان المهاجر الوسيط الذي يضطلع بمهام مصيرية ليس أقلها القيام بدور الوسيط بين الثقافتين اللتين يجسدهما يوميا في حياته.

يتميز معلوف بين نوعين من المهاجرين: مجموعة فشلت المجتمعات الغربية في إدماجها، ومجموعة تعيش في أحضانها بسلاسة وتسهم فعليا في تدعيم أسباب القوة فيها. يذكر المؤلف العديد من المخطات التاريخية القريبة وكلها تشير إلى ما أسماه الاختلال في العالم الغربي ومنها أحداث 11 سبتمبر 2001، تفجيرات لندن، تفجيرات مدريد... والقائمة طويلة. المتورطون في هذه الأحداث كلهم عاشوا في البلدان الغربية ودرسوا فيها واشتغلوا، ومع ذلك لم يتشبعوا بالقيم الغربية. هؤلاء بنظر أمين معلوف لم يعودوا يقبلون دور الأبوة المصطنعة التي تمارسها البلدان الغربية اتجاه بلدانهم الأصلية كما كان يقبل أجدادهم وآبائهم، بل أصبحوا يطالبون باحترام خصوصياتهم الثقافية وصون انتماءاتهم وهوياتهم واتخذت المطالبة هذه صورا سامية من العنف حينما تعاضمت البغضاء والكراهية في الاتجاهين. هذه القطيعة برأي معلوف تسببت بظهور شريحة من المهاجرين وصفها بأوصاف سلبية للغاية لأنها ربطت حياتها بممارسات عنفية مثلت خطابها المهيمن في مواجهة ثقافة

البلدان المستقبلية، فنكتشف معه المهاجرين المجرمين والمهاجرين الإرهابيين والمهاجرين السفاحين...

"Si ces personnes elles-mêmes ne peuvent assumer leurs appartenances multiples, si elles sont constamment mises en demeure de choisir leur camp, sommées de réintégrer les rangs de leur tribu, alors nous sommes en droit de nous inquiéter sur le fonctionnement du monde"⁸.

"C'est ainsi que l'on (fabrique) des massacreurs, ai-je envie de crier"⁹.

"Si nos contemporains ne sont pas encouragés à assumer leurs appartenances multiples, s'ils ne peuvent concilier leur besoin d'identité avec une ouverture franche et décomplexée aux cultures différentes, s'ils se sentent contraints de choisir entre la négation de soi-même et la négation de l'autre, nous serons en train de former des légions de fous sanguinaires, des légions d'égarés"¹⁰.

لكن وبالمقابل المئات من المهاجرين في البلدان الغربية اقتلعوا الاعتراف المجتمعي نظير أعمالهم وانضباطهم واحترامهم لقيم العمل والعلم، هؤلاء أكثر من غيرهم يصلحون لأداء دور الوسيط بين الثقافتين. فهم مطالبون من جهة بالتعريف بالثقافة المستقبلية كلما عادوا إلى بلدانهم الأصلية محاولين محو الصور المشوهة عن الغرب، ولكن وفي نفس المهمة يجب أن يضطلعوا بواجب التعريف بثقافة البلدان الأصلية محاولين تصحيح ومحو الصور المشوهة التي يجوزها الإنسان الغربي بحق الإنسان العربي-المسلم أو الإنسان الآخر في أي بقعة من الأرض.

يرفض أمين معلوف أن يرى في المهمة استحالة التحقق، وإن اعترف بصعوبتها

البالغة، ولكنه لا يرى خيارا بديلا لمحاولة تجاوز الوضعية الراهنة.

"Je l'écris sans détour, et en pesant mes mots : c'est d'abord là, auprès des immigrés, que la grande bataille de notre époque devra être menée, c'est là qu'elle sera gagnée ou perdue. Ou bien l'occident parviendra à les reconquérir, à retrouver leur confiance, à les rallier aux valeurs qu'il

⁸ Amine Maalouf, **Les identités meurtrières**, (France : Ed Grasset, 1998), p 11.

⁹ Amine Maalouf, **Les identités meurtrières**, p 11.

¹⁰ Amine Maalouf, **Les identités meurtrières**, p 44.

proclame, faisant d'eux des intermédiaires éloquents dans ses rapports avec le reste du monde; ou bien ils deviendront son plus grave problème"¹¹.

يحتفظ المفكر ضمن هذه الفئة المؤثرة من المهاجرين بفتحة مؤثرة فرعية تتمثل في نخبة المهاجرين الذين برأيه ومن خلال الثقافة والتعليم هم في مستوى يسمح لهم بإحداث التقارب المأمول، ويرى في الأدب الرافد الأفضل لكذا مشروع. هذه الفكرة تجسيد فعلي لما يعيشه أمين معلوف كمفكر وروائي عربي ومسيحي مقيم في بلد غربي احتضنه لعقود ولا يزال، فردّ الجميل بإبداع نال الإعجاب والتقدير، وجلب لفرنسا ودور النشر فيها السمعة والشهرة المستحقة، ويدافع عن هذه الفكرة بشراسة في أكثر من موضع ويقوم بذلك بأسلوب مباشر يوظف فيه أسلوب المتكلم.

أكد المفكر اللبناني في الصفحات الأولى من كتابه "الهويات القاتلة" المعطى أعلاه من خلال تناوله للسؤال الذي يطرح عليه دوما والذي يجيب عليه بنفس الإجابة، وهو: هل تعتبر نفسك لبنانيا أم فرنسيا؟

ما كتبه أمين معلوف يبين شخصا غير قادر على التنكر لانتمائه اللبناني وغير قادر على الجحود اتجاه مجتمعه احتضنه وسمح له بتبوء المكانة التي تبوأها. ينطلق المفكر من هنا ليؤسس طرحا متكاملا لماهية الهوية وعناصرها البنائية.

" Moitié français, donc, et moitié libanais ? Pas du tout ! L'identité ne se compartimente pas, elle ne se répartit ni par tiers, ni par plages cloisonnées. Je n'ai pas plusieurs identités, j'en ai une seule, faite de tous les éléments qui l'on façonnée, selon un « dosage » particulier qui n'est jamais le même d'une personne à l'autre"¹².

ب-العولمة والهجرة:

يعلن أمين معلوف في عبارات دقيقة وواضحة بأنه لم يشعر في يوم ما بالانتماء الديني الواحد أو المتعدد، وأنه لم يشعر أبدا بالانصهار التام في أمة معينة، موقف ظهر في مقطع

¹¹ يوظف أمين معلوف مفهوم المعاملة بالمثل (réciprocité) بمعان تقترب من مفهوم الثقاف والتفاعل اللذان يؤسسان للتأثير المتبادل بين الأطراف الحاضرة في وضعيات بعينها.

¹² Amine Maalouf, *Le dérèglement du monde*, p 213.

تضمنته مقدمة كتابه "بدايات" المقطع الذي يلخص طروحاته حول العولمة، الموضوع الذي خصص له فصلا من فصول كتابه الآخر "الهويات القتالة" ووضع له عنوانا معبرا: زمن القبائل الكونية (Le temps des tribus planétaires).

يقترح هذا المحور من الدراسة عرضا مركزا ووافيا للأفكار التي تتجاذب موضوع العولمة كما حللها أمين معلوف في المقام الأول، ثم ندرج محاولة لموضعة موضوع الهجرة ضمن هذا الطرح النظري.

"Je n'ai jamais éprouvé de véritable appartenance religieuse- ou alors plusieurs, inconciliables ; et je n'ai jamais ressenti non plus une adhésion totale à une nation-il est vrai que, là encore, je n'en ai pas qu'une seule"¹³.

يرسي أمين معلوف في الفصل المذكور أعلاه جسورا بين العولمة والأوضاع المرتبطة بأقطاب ثلاثة تمثل مجتمعات كانت منضوية تحت المعسكر الشرقي ومجتمعات أخرى تنعت بدول العالم الثالث وأخيرا مجتمعات العالم الغربي. يرجع المفكر اللبناني تعاضم تأثير الانتماءات والانتماء الديني على وجه الخصوص، إلى ما خبرته هذه المجتمعات من أحداث مزللة في العقود الأخيرة. اندحار الشيوعية فسح المجال الواسع أمام الانتماءات التي بدأت تمارس حرية لم تعهدها من قبل. وبالمقابل، انتصارات العالم الغربي فرضت نمطا للعيش أغرى واستهوى الملايين من البشر جعلهم يهاجرون بسببه إلى المجتمعات الغربية أو جعلهم يعيشون بمقتضاه في بلدانهم الأصلية، بالرغم من أن هذا النمط ظل عاجزا حيال مشكلات كبيرة تفاقمت بين أسواره، وعلى رأس القائمة تتربع مشكلات الانحراف الأخلاقي، المخدرات والبطالة. أما مجتمعات العالم الثالث فتتميز بالصورة القائمة التي تعكسها والتي تدفع بالمواطنين فيها إلى التفكير دوما في العيش الأفضل والفضاء الذي يصون لهم كرامتهم، فتتلاقى الأحلام والآمال بصور واقعية تأتيهم من الغرب، فيقررون الهجرة كاختيار مصيري ينقلهم من حياة منهكة إلى حياة يأملونها وردية. فهم السياقات هذه برأي أمين معلوف يقتضي العودة إلى إطار مرجعي أسماه بالعولمة.

¹³ Amine Maalouf, **Les identités meurtrières**, p 8.

"Ceux qui aspirent au (paradis occidental) n'ont souvent d'autre ressource que l'émigration. A moins qu'ils n'appartiennent à l'une de ces (castes) de privilégiés qui s'efforcent de reproduire chez elles, tant bien que mal, certains aspects de ce model convoité"¹⁴.

"Si la montée du religieux s'explique, en partie, par la déconfiture du communisme, en partie par l'impasse ou se trouvent diverses sociétés du tiers-monde, et en partie par la crise qui affecte le modèle occidental, l'ampleur du phénomène, et sa tonalité, ne peuvent se comprendre sans référence à l'évolution récente, si spectaculaire, dans le domaine des communications, et à l'ensemble de ce qu'il est convenu d'appeler la mondialisation"¹⁵.

تذهب مضامين الفصل إلى التأكيد على أن العولمة من خلال الصورة، اللباس، أساليب الأكل، الموسيقى وأمور كثيرة أخرى، قربت الملايين من البشر من بعضهم البعض وأصبحوا على تشابه كبير، لكن العولمة في ميلها الشديد نحو تنميط الأفكار والممارسات تولد ردود أفعال، مقاومات، أشكال مختلفة من الرفض، وعنفا شديدا حينما يشعر الأفراد والجماعات بخطر محقق ينال مقومات هويتهم وعناصر من ثقافتهم، فتتغذى الانتماءات من هذه الوضعيات وتتجلى غالبا في ثوب ديني هو الأقوى بأعينهم إذا تعلق الأمر بالمواجهة والمقارعة.

"L'époque actuelle se passe-t-elle sous le double signe de l'harmonisation et de la dissonance. Jamais les hommes n'ont eu autant de choses en commun, autant de connaissances communes, autant d'images, autant de paroles, autant d'instruments partagés, mais cela pousse les uns et les autres à affirmer d'avantage leur différence"¹⁶.

يقدم المفكر اللبناني العولمة في بقية التحليل ليس "كخير" كما يفعل أنصارها وليس "كشر" كما يفعل خصومها، بل يقدمها كواقع يتحكم في مفاصل الحياة ولا سبيل لإلغائه وتجاهله. شحن أمين معلوف موقفه من العولمة بشحنات من التفاؤل عبّر من خلاله عن إيمانه وأمله في أن تتيح العولمة بروز هوية من طبيعة أخرى تجمع الانتماءات المتصادمة

¹⁴ Amine Maalouf, **Origines**, (Paris : Ed Grasset, 2004), p 8.

¹⁵ Amine Maalouf, **Les identités meurtrières**, p 102

¹⁶ Amine Maalouf, **Les identités meurtrières**, p 102.

ضمن هوية مركبة جامعة لا تقصي ولا تتجاهل ويؤسس لهذا التفاؤل من خلال تحليله لقضية أولها أهمية قصوى هي الإرث الأفقي والإرث العمودي الذي يملكهما كل إنسان (Héritage vertical et héritage horizontal).

يؤكد الكاتب مستعملا العديد من الأمثلة الواقعية والافتراضية، بأن الإنسان في الوقت الحاضر يغلب الإرث الأفقي على الإرث العمودي في حياته وفي أوجه تعامله مع الآخرين. يحتاج إنسان العصر إلى كل الأمور المشتركة التي تجمعها وبغيره وهي كثيرة جدا (هذا هو المقصود بالإرث الأفقي)، أمور أفرزتها الظروف الحاضرة، وفي نفس الوقت يقل إقبال إنسان العصر على مكتسبات الماضي الموروثة (هذا المقصود بالإرث العمودي).

"Il me semble que le (vent) de la mondialisation pourrait effectivement nous conduire au pire, mais également au meilleur. Si les nouveaux moyens de communication, qui nous rapprochent trop vite les uns des autres, nous amènent à affirmer, par réaction, nos différences, ils nous font également prendre conscience de notre destin commun. Ce qui me donne à penser que l'évolution actuelle pourrait favoriser, à terme, l'émergence d'une nouvelle approche de la notion d'identité. Une identité qui serait perçue comme la somme de toutes nos appartenances, et au sein de laquelle l'appartenance à la communauté humaine prendrait de plus en plus d'importance, jusqu'à devenir un jour l'appartenance principale, sans pour autant effacer nos multiples appartenances particulières"¹⁷.

"En somme, chacun d'entre nous est dépositaire de deux héritages : L'un (vertical), lui vient de ses ancêtres, des traditions de son peuple, de sa communauté religieuse ; L'autre, (horizontal), lui vient de son époque, de ses contemporains. C'est ce dernier qui est, me semble-t-il, le plus déterminant, et il le devient un peu plus encore chaque jour ; Pourtant, cette réalité ne se reflète pas dans notre perception de nous-mêmes. Ce n'est de l'héritage (horizontal) que nous nous réclamons, mais de l'autre"¹⁸.

المهاجر على ضوء الأفكار أعلاه-ولا ننسى أنها وردت في فصل يتناول العولمة-

شخص توجهه مجموعة من العناصر الثقافية التي تختلف من وضعية إلى أخرى صفتها

¹⁷ Amine Maalouf, **Les identités meurtrières**, p 106.

¹⁸ Amine Maalouf, **Les identités meurtrières**, p 119.

التراكم، تحدد في النهاية هويته الواحدة والمركبة. هذا الشخص الذي يرث في مجتمعه الأصلي مجموعة من المقومات تعود إلى ماض بعيد جدا وماض قريب، تتيح له القيام بتقييم أوضاعه في سياق مجتمعه وغالبا ما يصطدم هذا التقييم بنتائجه مع ما هو سائد اجتماعيا، اقتصاديا، ثقافيا وعقائديا فيقرر الانسحاب والانتقال إلى فضاءات أخرى تؤكد أو توهم بأنها توفر له حياة أفضل.

ينتقل المهاجر إلى تلك الفضاءات حاملا معه تصوراتته اتجاهها، وحاملا إرثه التاريخي الذي يغدو في المحك في الأيام الأولى من هجرته. حتى يواجه المهاجر في عالمه الجديد آليات الاندماج القهري تارة وآليات التقبل العفوي تارة أخرى، ويبقى فريسة للعنصرية في محطات تاريخية بعينها ورافدا من روافد الانسجام الاجتماعي في محطات تاريخية أخرى.

يحاول معلوف في تحليله أن يجد مبررات لجميع الأطراف، المهاجرين من جهة، والمجتمعات المستقبلية من جهة الأخرى، ولا يذهب في آخر تحليل إلى الحد الذي يسمح التمييز بين المخطئ والذي وقع الخطأ في حقه، بين الضحية والجلاد، بين المحترم للقانون والخارج عنه، بين المهيمن والمهيمن عليه... لا ينكر المفكر بأن الهجرة ترتبط مفصليا بطرح كذا قضايا على بساط البحث والنقاش، لكنه يرى في أمر تجاوز الأوضاع الحالية بكل ما تمثله من إرهابات وتحمله من أزمات، أولية يجب العمل على تحقيق غاياتها بالصدق والمثابرة اللازمين. غاية التجاوز ومن ثم بلوغ أوضاع أكثر تطورا في مسألة الهجرة والمهاجرين ليست مستحيلة بالرغم من المعوقات لأن ما يجمع البشر برأي أمين معلوف (الإرث العمودي) أعظم تأثيرا من تأثير ما يفرقهم (الإرث الأفقي).

هذا الطرح يقترح علينا مهاجرا مأمولا وليس مهاجرا واقعا، ولن تكفي الأمثلة الواقعية الكثيرة التي يوظفها المفكر اللبناني بكثافة في أعماله كي تمحو صدمة الواقع. من جهة أخرى ينصب المفكر نفسه شاهدا على ما هو قائم فعلا، وعلى ما بالإمكان انجازه مستقبلا، وبهذا

نكتشف فيه المهاجر الشاهد والمالك للحلول والحامل لهموم الآخرين حتى وإن اختلفت طبيعتها من مهاجر إلى آخر، ومن جماعة إلى أخرى راميا الخصوصيات جانبا. أخيرا، وفي الخلاصة، يبنّي تحليل أمين معلوف على نسق من المبررات الفكرية تدعو إلى النسيان، التسامح والتضحية-وقد يكون فِكر في مكانته كمهاجر نجوي عندما نسج هذا النسق- ويبنّي على تمنيات وآمال لها ما يسندها في الواقع لكنها تبقى تمنيات وآمال طالما عجز الإنسان عن التنبؤ والتحكم في مسارات المستقبل. وبالتالي لا شيء يوحى بتغيير العوامل المحددة للهجرة والمتحكمة في ماهية المهاجر.

خاتمة: تقترح مؤلفات أمين معلوف رصيذا متراكما من المعرفة تتيح دوما المساءلة والنقد وهي بهذا المعنى أعمال لا تكتفي بنفسها وتسيّج حول نفسها، بل على عكس ذلك تماما تقترح مسارات جديدة للتفكير ودروبا للمقارعة تعمل بنفس مستجد. الرواية الأخيرة تركت القراء في مرحلة غير منتهية بعد أن دخل آدم الشخصية المحورية في غيبوبة إثر حادث مرور وقع له في بلده عند زيارته له بعد غياب طويل. نقل إلى فرنسا مقر إقامته على وجه السرعة للعلاج ونحن على يقين بأن المؤلف القادم، سواء أعلن موته أو نجاته، سيمثل انطلاقة جديدة لعلاقة أمين معلوف مع لبنان ومع كل ما يتجاذبه وعلى رأس قائمة القضايا المؤرقة تأتي الطائفية.